محطات في تاريخ الكون

د. محمد دودح
الباحث العلمي بهيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ السجدة: ٤؛ ورد في التفسير أنه بيان بخلق العالم في مدد متطاولة شُبِّهَت بالأيام؛ حيث لم يوجد بعد لا شمس ولا قمر ولا زمان، وفي مقام التكوين؛ ورود التعبير (وَمَا بَيْنَهُمَا) بعد خلق الأرض، يجعله يشير إلى تكوين تابع للأرض يتواجد بينها وبين آفاق الأجرام الفلكية؛ أي هو بالنسبة للأرض سماء، فيستقيم حمله على الغلاف الجوي المكون من طبقات كآفاق الأجرام الفلكية، قال ابن عاشور: "والسماء إن أُرِيد بها الجو المحيط بالكرة الأرضية فهو تابع لها (نظمًا) متأخر عن خلقها، وإن أريد بها.. (آفاق الأجرام) العلوية.. (فهي) أعظم من الأرض فتكون أسبق خلقًا"، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ فصلت: ٩و١٠؛ بيان يختص بتاريخ الأرض دون بقية الكون، وفيه أن مدة خلقها ذاتها يومين من الستة أيام، وأن في اليومين التاليين تكون سطحها الصخري وقاراتها ذات الجبال، ونشأت فيها الحياة مع توفر الماء وباللزوم الجو؛ وتكاملت بظهور أصناف من الأحياء، فَكُشِفَت بهذا الأحداث الفارقة في تاريخ الكون ووضعت في مراحل رئيسة ثلاث متساوية المدد في تدريج زمني Time Scale:

ويُقَسَّم تاريخ ظهور الأحياء حسب الحفريات إلى ثلاث حقب؛ القديمة والوسطى والحديثة، وتتميز الفترة بين القديمة والوسطى بانقراض جماعي (Permian–Triassic extinction) هو الأعنف في تاريخ الأحياء، وفي الحقبة القديمة كانت أصناف عديدة من الأحياء البحرية خاصة؛ والبرية قد ظهرت، وبانتهائها منذ حوالي ٠,٢٥ بليون سنة انتهى تشكيل العالم.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ التوبة: ٣٦؛ جاء الفعل (خَلَقَ) بصيغة الماضي، فيعني أن عدد الشهور في السنة القمرية كان اثنا عشر شهرا يوم اكتمل خلق العالم، وتقييد عدد الشهور القمرية بفترة محددة في تاريخ العالم يدل على أنها ليست الآن كذلك، ولفظ (عِدَّةَ) يجعلها مقاسه بالنسبة لنظام توقيت مماثل كما تقيس المعتدة عدتها بدورة فلكية بدلا عن موعد دورتها؛ وليس إلا التوقيت الشمسي، والتعبير (فِي كِتَابِ اللَّهِ) يعني في تقديره تعالى وعلمه، فالمعنى إذن أن السنة الشمسية تتزايد مع الزمن مقاسه بالشهور القمرية الحالية، والسنة الشمسية حاليا: ١٢,٣٦٨ شهرًا قمريا؛ وتمثل تلك القيمة زيادتها منذ وقت تكون الأرض في السديم الشمسي، وإذا كانت الزيادة ١٢ شهرًا إلى وقت اكتمال العالم؛ تكون القيمة ٠,٣٦٨ شهرًا الزيادة منذ اكتمال العالم إلى اليوم، وهي حوالي: ٠,٢٥ بليون سنة؛ فيكون العمر الجيولوجي للأرض حوالي: ٤,٥ بليون سنة، وعمر الكون حوالي: ١٢,٥ بليون سنة، وهي نفس القيمة التي توصل إليها عام ٢٠٠١ الفلكي روجر كاريل Roger Cayrel على رأس فريق فلكي من عدة مراصد في فرنسا والولايات المتحدة والسويد وإيطاليا والبرازيل، وذلك برصد تحلل اليورانيوم-٢٣٨ في أقدم الأجرام الفلكية.